الفصل الثالث

مفهوم الوحدة التاريخية

تبين لنا مما سبق أن معنى كلمة التاريخ هو معرفةُ الوقت، وتبيّن لنا في عمل سابق بعضُ القواعد العلمية والطرق الاستنباطية، التي تكشف عن المعاني التاريخية في القرآن الكريم[1]، وقد استنبطت هذه الطرق من القرآن نفسه، ومعلوم أن القرآن الكريم لم يذكر صراحةً تاريخ نزول آية أو سورة معينة، بل لم يذكر صراحة تاريخ حادثة إسلامية واحدة، لا في قصة خلق الكون أو السماوات أو الأرض، ولا في قصة آدم عليه السلام ولا في من أتى بعده من الأنبياء والرسل، ولم يؤرّخ لحادثة نزول القرآن في غار حراء، ولا لتاريخ البعثة ولا لتاريخ حادثة الإسراء، ولا لتاريخ هجرة النبي عليه الصلاة والسلام، ولا لتاريخ معركة إسلامية واحدة، وإنما اهتم القرآن الكريم بالهداية والعلم والحكمة والعبرة، والتبشير بالجنة والنذير من النار وليس بالمعرفة التاريخية.

ونؤكد مرة أخرى أن علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، لا يهدف إلى المعرفة التاريخية إلا من أجل الحكمة التشريعية من تتابع نزول المعاني القرآنية، فمعرفة الأسباب والمناسبات والناسخ والمنسوخ وغيرها من العلوم التي أقرّ العلماء بضرورتها وأهميتها للمفسّر لا تتحقق فعلاً إلا بالمعرفة التاريخية لنزول هذه الآيات، وذلك لمعرفة تاريخ الحادثة والمتقدّم من الآيات والمتأخر منها، فالمعرفة التاريخية ضرورية للعالم والمجتهد حتى يستطيع الوصول إلى الصواب في الحكم، أي أن الاجتهاد الفقهي والعقدي والسياسي يعتمد كثيراً على الاجتهاد التاريخي

---

(1) علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، فصل طرق استنباط المعاني التاريخية، 155.

لنزول القرآن الكريم، ولذا اعتبرنا علم تاريخ النزول من العلوم المنهجية، والعلوم المنهجية هي علوم اجتهادية، و«علم التفسير في معظمه قائم على الاجتهاد، سواء في ذلك التفسير التحليلي أو الإجمالي أو الفقهي أو العلمي أو الصّوفي أو حتى الأثري»[1]، قد يصيب فيها المجتهد وقد يخطئ، وقد يصيب أحد المجتهدين في معرفة تاريخ معيّن ولا يصيب في آخر، ونبيّن هذه القواعد هنا زيادة على ما بيناه من قبل على النحو التالي:

القاعدة الأولى: أن تأتي الإشارة إلى المعرفة التاريخية من الآية القرآنية نفسها، مثل ذكر كلمات المكان أو الزمان، ومثاله قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾﴾، فالنصّ في الآية على اليوم وهو من الظروف الزمانية والمحددات التاريخية، وفي رواية عن عمر بن الخطاب: (إني لأعلم حيث أنزلت وأين أنزلت وأين رسول الله حين أنزلت: يوم عرفة، وإنّا والله بعرفة)[2]، فقد حدّدت الرواية أنه يوم الجمعة التاسع من شهر ذي الحجة، وقد شرح ابن حجر «حيث أنزلَت وأين أنزلت»، أن إحداهما للمكان والأخرى للزمان، وضعّف من قال بغير يوم الجمعة وغير هذا التاريخ أيضاً[3].

القاعدة الثانية: الحكم بسبب ورود كلمات ظرفية زمانية أو مكانية في الآية، مثل: الآن، ومن قبل، ومن بعد، وكنتم، وهنالك، أو بسبب أفعال الماضي والحاضر والمستقبل وغيرها.

ومثاله قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾، وهذا إخبار عن إنزال سابق وسورة النحل مكية فلا بد أن الإنزال السابق مكي أيضاً، وهو قوله تعالى

---

(1) منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، الدكتور زياد الدغامين، ص 114.

(2) انظر: صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، كتاب تفسير القرآن، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ- 1991م، م3، ج5، ص 220.

(3) انظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، 8/ 270.

من سورة الأنعام[1]: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾، وعليه فتاريخ نزول سورة الأنعام قبل تاريخ نزول سورة النحل، وهو ما اتفقت عليه اجتهاداتُ ترتيب النزول.

وأما أمثلة الأفعال الزمانية فقوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾، فقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، يشير إلى نزول سابق فيما فرضه الله تبارك وتعالى على المؤمنين، وهو ما نزل من سورة النساء: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾، فدل الفعل الماضي في (فرضنا)، على أن سورة النساء نزلت قبل سورة الأحزاب[2].

القاعدة الثالثة: الحُكْم بالمناسبة التاريخية المتزامنة مع حدث تاريخي متفق على تاريخ وقوعه، ومثاله: نزول سورة الأنفال بعد غزوة بدر التي لم يُختلف على وقوعها في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، فتاريخ نزول سورة الأنفال بعد الغزوة بحكم المناسبة التاريخية للغزوة، وكذلك تاريخ نزول سورة آل عمران بحكم المناسبة التاريخية لغزوة أحد، وتاريخ نزول سورة التوبة بحكم المناسبة التاريخية لغزوة تبوك وهكذا.

---

(1) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري)، ابن جرير الطبري، م8/ ج14/ ص 247.

(2) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري (310هـ)، م12/ ج22، ص30. وتفسير النكت والعيون للماوردي، 3/ 332. وتفسير ابن كثير 3/ 508، وغيرها.

القاعدة الرابعة: هي الحكم بالمناسبة الترتيليّة وهو ما اصطلحنا عليه في علم تاريخ النزول بالمناسبة التنزيلية[1]، فإذا عرفت المناسبة التاريخية لسورة معينة فإن حكم تاريخ نزول آياتها هو نفسُ حكمها، لأن الأصل أنها نزلت في مناسبة ترتيلية واحدة، وأيضاً الحكم بتاريخ نزول آية ما أنه كان بتاريخ معيّن، بناء على أن تاريخ نزول الآية التي قبلها هو كذا، وذلك في السورة القرآنية الواحدة، فالآية التي يُعلم تاريخ نزولها نحكم به على أنه أيضاً تاريخ نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها، إلا إذا وجد تاريخ نزول خاص لآية أو آيات أخرى من نفس السورة، فالأصل أن تاريخ نزول الآية هو تاريخ نزول سورتها، وكذلك تاريخ نزول السورة هو تاريخ نزول آياتها إلا بمانع راجح درايةً ورواية، فالآيات في سياقها لها نفس التاريخ بحكم المناسبة الترتيلية، أي بحكم اتّساقها ونظمها في استقامة واحدة في السورة.

ومثالها من سورة الأنفال الآية: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾، فتاريخ نزول الآية عند ابن إسحاق هو يوم الهجرة النبوية، واجتماع كفار دولة قريش في دار الندوة يتآمرون على قتل النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا تاريخ الحادثة وليس تاريخ نزول الآية، لأن تاريخ نزول سورة الأنفال هو العام الثاني بعد الهجرة بحكم المناسبة التاريخية لمعركة بدر، وعليه فتاريخ نزول الآية هو العام الثاني بحكم المناسبة الترتيلية أو التنزيلية للآية في سورة الأنفال[2].

القاعدة الخامسة: النص في الآية على تنزيل سابق، مثاله قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ ﴾، والمقصودُ من قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ ما

---

(1) للمزيد عن معنى المناسبة التنزيلية انظر كتاب علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره ص 134.

(2) السيرة النبوية، ابن هشام 2 ـ 484، وكتاب أسباب نزول القرآن ومناسباتها وتاريخها في السيرة النبوية، دراسة تاريخية لأسباب نزول القرآن ومناسباته عند ابن إسحاق، عمران نزال، سبب نزول رقم (96).

نزل في أول سورة النساء في أحكام المواريث، قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب الآية قالت: والذي ذكر الله أنه يتلى عليهم في الكتاب. الآية الأولى التي قال الله ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾[1].

القاعدة السادسة: أن مفهوم الآية المعيّنة يوجب نزول آية سابقة في موضوعها، ومثاله قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾، في هذه الآية ذكر لوعد من الله ورسوله، فأين الوعد ومتى كان ومتى نزل؟ وكان المقصود قوله تعالى في سورة النور: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾، وبذلك استدل على أن تاريخ نزول سورة النور كان قبل سورة الأحزاب[2].

وقد استعمل المفسرون هذه القاعدة لنفس الآية ولكن على آية أخرى من سورة البقرة، قال الطبري: (وقوله: ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ ﴾ يقول: ولما عاين المؤمنون بالله ورسولهُ جماعات الكفار قالوا تسليماً منهم لأمر الله، وإيقانا منهم بأن ذلك إنجاز وعده لهم، الذي وعدهم بقوله ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾ [البقرة: 214] إلى قوله: ﴿قريب﴾ هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، فأحسن الله عليهم بذلك من يقينهم، وتسليمهم لأمره الثناء، فقال: وما زادهم اجتماع الأحزاب عليهم إلا إيمانا بالله وتسليماً لقضائه وأمره، ورزقهم به النصر والظفر على الأعداء.

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، وانظر صحيح البخاري، رقم (2314) ومسلم: صحيح مسلم، كتاب التفسير، رقم (5335).

(2) انظر: علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره ص 160.

21664 - قال الطبري حدثني محمد بن سعد، قال: حدثني أبي، قال: حدثني عمي، قال: حدثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ . .﴾ الآية قال: ذلك أن الله قال لهم في سورة البقرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم . .﴾ [البقرة: 214]. . . إلى قوله ﴿نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ قال: فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق، تأول المؤمنون ذلك، ولم يزدهم ذلك إلا إيمانا وتسليما)[1].

هذه القواعد الستّ يُعمل بها في تحديد تاريخ نزول الآيات والسور، وكلها مستنبطة من القرآن نفسه، وفي الروايات الحديثية والآثار قواعد أخرى يمكن التعامل معها، والانتفاع بها، وكلها معارف لا بد منها في بيان منهجية علمية في التفسير التاريخي، ولكن أهم أساس للتفسير التاريخي للقرآن الكريم، هو ما يتبناه العالم من ترتيب لنزول سور القرآن الكريم، سواء كان باجتهاد منه أم باتباع ترتيب سابق لمجتهد آخر يطمئنّ له رواية ودراية.

وحيث إن ترتيب نزول الآيات في السّور معروف بحكم المناسبة الترتيلية للآيات، وأن لها نفس حكم تاريخ نزول سورتها، فإن مدار التفسير التاريخي سيعتمد كثيراً على معرفة ترتيب نزول السور كلها، من حيث تاريخ نزولها لمعرفة الترتيب الأول ثم الثاني ثم الثالث وهكذا، وحيث أن الجهود والاجتهادات السابقة في الترتيب لها قيمتها العلمية العالية، فهي اجتهادات صحابة وتابعين ومن أتى بعدهم حتى عصرنا الراهن، فإن مما يمكن أن تتّجه له الدراسات الحديثة هو ترجيح ترتيب من هذه الترتيبات أو الاجتهاد في ترتيب جديد يكون أرجح منها علمياً.

ومما هو معلوم بالاتفاق أن ترتيب المصحف الإمام ليس على ترتيب النزول التاريخي، وقد اجتهد عدد من العلماء في بيان الحكمة من تناسُب الآيات والسّور بحسب ترتيب المصحف الإمام، ومن أهم هذه الجهود التفسير الكبير «نظم الدرر في

---

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، ج 21/ 173. و الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ج14/ 144، وتفسير ابن كثير 3/ 475.

تناسُبُ الآيات والسّور»[1]، تأليف برهان الدين البقاعي، المتوفى سنة (885هـ)، وبحثٌ صغير لجلال الدين السيوطي أسماه «ترتيب سور القرآن»[2]، وهذه جهود قيّمة وعظيمة، لأنه مما لا شك فيه أن وراء جمع المولى عز وجل للقرآن الكريم بهذا الترتيب حكمة بالغة، ولكن هذه الحكمة لا تمنع من دراسة القرآن الكريم بحسب ترتيب النزول وتاريخه، بل إنَّ الحث على هذه الدراسة ثابت بنص القرآن كما سبق بيانه.

إن الاجتهاد المطلوب قبل الإقدام على التفسير التاريخي هو في ترتيب السور القرآنية بحسب تاريخ نزول السور وترتيبها التقريبي، وهذا ممكن لورود الترتيبات العديدة عن الصحابة والتابعين، ولإمكانية دراسة السورة القرآنية كوحدة واحدة، وقد وجدنا أن من أهم ما يساعد على ترتيب النزول هو معرفة الوحدة التاريخية لكل سور القرآن، أي معرفة المدة الزمنية التي استغرقت في نزول السورة الواحدة، من بدايتها إلى نهايتها، إذ لا يمكن ترتيب نزول السور ما لم ينظر إلى السور القرآنية منفردة كوحدة واحدة، وهذا ممكن لأن الله تبارك وتعالى جعل وحدات بناء القرآن الكريم الكبرى هي السور، والسور القرآنية معروفة الاسم والعدد ومحددة البداية والنهاية.

والأصل في معرفة الوحدة التاريخية لأي سورة هو وحدتها وهي في سورة واحدة في القرآن الكريم أولاً، كما تم جمعه من الله تبارك وتعالى بعدما أنزله مفرقاً، وما تأكد توثيقه كتابةً في العهد النبوي، وما شهد المسلمون والمؤمنون ـ من خيرة الأمم ـ على عملية جمعه في المصحف الإمام في الخلافة الراشدة، وما تم الحفاظ عليه جيلاً بعد جيل في وحدات السور القرآنية دون تغيير ولا تبديل.

فالسور القرآنية المائة والأربع عشرة سورة هي كما أنزلت من الله تبارك وتعالى، وهي في هذه الوحدة الواحدة بُنْية قرآنية واحدة، الأصل فيها أنها نزلت من الله تعالى وحدة واحدة وإن نزلت مفرقة على الأيام أو الأسابيع أو الأشهر أو السنين، أي أن نزول القرآن مفرقاً لا يعني بالضرورة نزول آيات سور كثيرة دفعة واحدة مع

---

(1) نشر: دار الكتب العلمية، بتحقيق عبدالرزاق غالب المهدي، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ ـ 1995م.

(2) نشر كتاب: ترتيب سور القرآن، بتحقيق الدكتور السيد الجميلي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، 1986م.

بعضها بعضاً، ولا يعني بالضرورة أن تتقاطع السّور في تاريخ نزولها مع بعضها بعضاً، إذ لا يفهم ذلك من القرآن الكريم، ولا من البيان النبوي الشريف، ولا مما ورد في الأثر عن عثمان بن عفان ﷺ وفيه قوله: (إن رسول الله ﷺ كان مما يأتي عليه الزمان ينزل عليه من السور ذوات العدد، وكان إذا أنزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده يقول: (ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا) وينزل عليه الآيات فيقول: (ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا) وينزل عليه الآية فيقول: (ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا)[1].

لا يفهم من هذا الأثر أن آيات السورة الواحدة كانت تنزل مشتتة في أشهر وسنين، وأنه كان يشترك في هذه الأشهر نزول آيات وسور أخرى، بل الأصل أن يقال بالمناسبة الترتيليّة والتنزيليّة للسورة كما هي في المصحف الإمام، أي أن يُفهم أن نزول آيات السورة الواحدة كانت مفرقة وعلى دفعات، أو في نجوم ولكن متوالية ومرتلة في سورة واحدة وتاريخ واحد حتى يكتمل بناؤها بأمر الله تبارك وتعالى، وأن الآيات كانت تضم إلى ما نزل قبلها بتعليم من النبي عليه الصلاة والسلام، وأن لا يقال بالاستثناء إلا بدليل تقوم به الحجة.

فالحديث عن السور القرآنية كوحدة تنزيل هو الأصل لكل سور القرآن الكريم، وهذا لا يتعارض مع نزول القرآن مفرقاً، وإذا ما ورد في الروايات أو الآثار أيُّ استثناء لبعض الآيات بأنها تختلف في تاريخ نزولها عن تاريخ نزول سورتها، مثل ما يقال عن آيات مدنية موجودة في سور مكية أو بالعكس، فهذه كلها أخبار غير ثابتة عن النبي عليه الصلاة والسلام، وتحتاج إلى درجة من التوثيق قد لا تتوفر إلا لقليل منها، ولكن وحتى لو ثبت استثناء لبعض آيات سورة ما، فالوحدة التاريخية لأيّ سورة قرآنية هو أساس ترتيبها الزمني.

---

(1) انظر مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرنؤوط رقم (399) و رقم (499)، 1 / 460، طبعة مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1413هـ 1993م، وطبعة المسند بتحقيق أحمد شاكر، 1/ 332، دار الحديث، القاهرة، ط1/ 1416هـ 1995م. وكتاب المصاحف لأبي بكر السجستاني 1/ 230، بتحقيق الدكتور محب الدين عبدالسبحان واعظ، وزارة الأوقاف بقطر 1415هـ 1995م، وكتاب: علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، ص 70 و71 و72.

وإذا كنا لا ننفي الاستثناء كلية، فإننا لا ندّعيه ولا نقول به إلا ببينة راجحة، وهذا الاستثناء لو صح لا يمنع من معرفة الأصل ولا يُلغيه، وهو تاريخ نزول السورة، وهذا ممكن تحقيقه من معارف ترتيب النزول ومن ترتيب المعاني أو الوحدة الموضوعية التي تناولتها السورة نفسها، سواء كانت مكية أم مدنية، وسواء كانت مما نزل في أوائل العهد المكي أو أواسط العهد المدني أو غيرها، أي أن **مفهوم الوحدة التاريخية للسور القرآنية يعني: لكل سورة من القرآن الكريم مدة زمنية استغرقت في نزولها، وهذه المدة الزمنية واحدة من حيث تاريخ بدايتها ونهايتها، سواء كانت سورة قصيرة أم طويلة، والاجتهاد في تحديد المدة الزمنية التي نزلت فيها السورة القرآنية ممكن للسورة كاملة أو لمعظمها، ولو نزلت دفعة واحدة أو استغرقت الأيام أو الأسابيع أو الأشهر أو السنين.**

وهذا ينطبق على كل السّور سواء أكانت مكية أم مدنية، فهذه المدة التاريخية التي اكتمل فيها نزول السورة كلها هي وحدة زمنية وتاريخية واحدة مهما طالت أو قصرت، إذ إن معنى كلمة الوحدة: (وحد: الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد. من ذلك الوحدة، وهو واحد قبيلته إذا لم يكن فيهم مثله)[1]، فالوحدة التاريخية ما تنفرد به السورة الواحدة من تاريخ بدايتها إلى نهايتها، والخطوات الأساسية لمعرفة الوحدة التاريخية لأي سورة قرآنية هي:

1 ـ المعرفة التاريخية بالوحدة التاريخية للقرآن الكريم كله، فلا تخرج وحدة تاريخية لأي سورة قرآنية عن وجودها في الوحدة التاريخية للقرآن كله، أي نزولها في العهد النبوي الشريف، وفي حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وفي المدة الزمنية التي نزل فيها القرآن الكريم مفرّقاً في عقدين من الزمان تقريباً، من اليوم الأول من البعثة المحمدية، وحتى وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، فلا يوجد آيات قرآنية نزلت قبل نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ولا بعد فاته.

2 ـ الاعتماد على ترتيب راجح لنزول سور القرآن الكريم، وهذا الاجتهاد قد يكون تابعاً لاجتهاد سابق أو معدّلاً عليه أو جديداً، بناءً على دراسة علمية تاريخية موثقة.

---

(1) معجم المقاييس في اللغة، لابن فارس 1084.

3 ـ الأصل في نزول السور القرآنية نزولُها في مدة زمنية متقاربة بحكم المناسبات الترتيلية في السورة نفسها، ولا تخرج آية من مدتها الزمنية المعتبرة لسورتها إلا بحجة راجحة.

والداعي إلى هذه النظرة التاريخية للسور القرآنية، أو الثمرة العلمية والعملية لهذه الدراسات، هو الكشف عن أحد الاتجاهات المنهجية في تفسير القرآن الكريم الذي يرجى منه خيرٌ كثير، وقد ثبت لنا في فصل سابق اهتمام علماء المسلمين الأوائل بعلم ترتيب النزول، وإن لم يتم تسميته بهذا الاسم من قبل، فوجود هذه الترتيبات في خيرة القرون دليل على أهميتها ولو لم يتم التوسع فيه، أو لم يتم تفسير القرآن الكريم على أساسه، أو حتى لم يتم تصنيف بعض علوم القرآن بحسبه، وإن لم تُفَعَّلْ أصوله في القرون التي تلت أصحاب تلك الآثار الترتيبية من الصحابة والتابعين ﷺ.

ومن الممكن أن تكون معرفة هذه الوحدة التاريخية من الحكم التي أرادها الله تعالى من جعل القرآن مفصّلاً في سور، كوحدات بناء تشتمل كل واحدة منها على عدد معين من الآيات، أي أن وجود القرآن الكريم في سور كثيرة، كبيرة وصغيرة، متنوّعة القضايا والموضوعات، مدعاةٌ للتفكير عن الحكمة من ذلك، وقد تكون من الحكم التي أراد المولى عز وجل أن يتنّبه لها عباده المتدبّرون لكتابه الكريم، وطالما أن في ذلك حكمة، فقد يكون البحث عما يميز كل سورة من غيرها من كل النواحي والاتجاهات من العوامل التي تساعدُ على فهم هذه الحكمة، وما أضافته كل سورة عن غيرها، حتى يعلم لكل سورة مكانتها بين أخواتها، وإن كانت أقل من غيرها أو أكثر في عدد آياتها، مثل سورتي البقرة والإخلاص مثلاً، وفي كل الأحوال يكون الاجتهاد في معرفة تاريخ نزول السورة وترتيبها والوحدة التاريخية لها من أهم العوامل التي تكشف عن مميزات كل سورة، وما أوكل لها من مهام وأحكام ومسؤوليات لتعالجها في تاريخ نزولها، والمدة الزمنية التي احتاجتها كل سورة لمعالجة قضاياها.

وكأيٍّ علم لم يصنّف فيه من قبل، فقد يثار عليه الاعتراض أو يواجه بالرفض، ولذا قد تواجه نظرية الوحدة التاريخية بعض الاعتراضات، وقد تكون

شبيهة بما يثار من اعتراضات على التفسير التاريخي الذي ظهر حديثاً[1]، وما يثار من اعتراضات حول ترتيب نزول السور القرآنية[2]، وهذه الاعتراضات في الغالب هي بسبب الالتباس حول حقيقة هذا العلم وأهدافه، وبسبب صعوبة أو استحالة الوصول إلى الترتيب اليقيني، ونحن نتفهم ذلك، وقد بيّنا من قبل حقيقة هذا العلمَ وأهدافه بما يرفع اللبس لمن أراد الحقيقة فعلاً، بأنه علم منهجي اجتهادي تفسيري.

وأما عن صعوبة المعرفة التاريخية ويقينية ترتيب النزول، فنقول إن المعرفة اليقينية لعلم تاريخ النزول ليست مطلباً شرطياً، والمعرفة اليقينية ليست شرطاً لهذا العلم ولا لغيره من العلوم الاجتهادية الظنية، وقد سبق الإشارة إلى أن «علم التفسير في معظمه قائم على الاجتهاد سواء في ذلك التفسير البياني أو الأدبي أو الفقهي أو العلمي أو الصوفي أو حتى الأثري.. وسواء في ذلك التفسير التحليلي أو الإجمالي أو الموضوعي أو غيره»[3]، والحجة اليقينية التي يعتمد عليها هذا العلم هي في نزول القرآن الكريم مفرقاً، وأن في ذلك عِبرةً ودرساً للمسلمين والمؤمنين، وكل هذه الدارسات التاريخية تجتهد في معرفة هذا الدرس القرآني الأول، فالمطلوب هو أخذ العبرة العلمية من النزول التاريخي للقرآن أول مرة، وهذا ممكن حتى من المعرفة التاريخية الظنية، أي على غلبة الظن العلمية، والترجيح بين الممكنات.

إن حكمة نزول القرآن مفرّقاً لا تتعارض مع معرفة الوحدة التاريخية لأي سورة قرآنية إطلاقاً، بل هي دعامة لها وأساس لوجودها، وبالأخص إذا اعتمدنا على ترتيب النزول الذي اجتهد فيه الصحابة والتابعون، إذ كانوا قريبي عهد بمعرفة ما تقدم وما تأخر من تاريخ نزول السور، كما أنهم لا بد قد أعملوا عقولهم في ترتيب

---

(1) انظر: محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، الدكتور فريد محمد سليمان، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1414هـ ـ 1993م.

(2) انظر: بحث «حول ترتيب نزول السور القرآنية»، الدكتور إبراهيم عبد الرحمن خليفة، كتاب: دراسات إسلامية وعربية، إشراف د0 جمال أبو حسان، دار الرازي، عمان ـ الأردن، الطبعة الأولى، 1423هـ ـ 2003م، ص (91ـ119).

(3) منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، الدكتور زياد الدغامين، ص 114.

النزول ومعرفة المكي والمدني وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وكل العلوم التاريخية المتعلقة بالقرآن الكريم.

لقد بيّن المولى عز وجل في سورة الإسراء طريقة قراءة القرآن الكريم، بأنها قراءة تعليمية وتنزيلية، فقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾، فهذه طريقة القراءة القرآنية الأولى، ولكن التفريق لا يعني التشتيت، فمن الممكن أن تنزل السورة الواحدة مفرّقة ومرتبة الآيات كما هي في المصحف الإمام، وهو ما أسميناه بالمناسبة التنزيلية، أي أن نزول القرآن الكريم كان مفرقاً حتى يقرأه الرسول عليه الصلاة والسلام على الناس على مكث وتدريج، ويكون تعليمهم على مكث وتدرّج، ولا يلزم عن ذلك بالضرورة أن يكون نزول الآيات من سور عديدة في وقت واحد، أو أن تنزل آيات مكية في سور مدنية أو العكس، وإذا قيل ذلك فلا بد أن يثبت بالدليل القاطع، إذ الأصل أن يكون تاريخ نزول الآية هو تاريخ نزول سورتها، وهذا مأخوذ من معنى الترتيل كما سبق بيانه، فلا يقال بتاريخ نزول آية منفصلة عن سورتها إلا بيقين، فالوحدة التاريخية هي للسور كما كان التحدي القرآني للمشركين أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو أن يأتوا بعشر سور أو بسورة من مثله، ولم يأت التحدي أن يأتوا بآية أو بآيات من مثله، لأن السورة وحدة واحدة كما هي في المصحف الإمام، وهذا معنى عظيم يجب التنبّه له في فهم القرآن وتفسيره.

ولذا فإن هذا الاتجاه في التفسير ليس من الاتجاهات المبتدعة، فقد عرّفه المفسرون قديماً، من يوم اجتهدوا في ترتيب النزول، ولا علاقة لشبهات المستشرقين حول تاريخ القرآن بهذه الدراسات التاريخية الإسلامية، بل لا يجوز أن تتخذ تهمة الاستشراق ضد كل دراسة قرآنية مجددة[1]، وبالأخص إذا كانت تهدف إلى التجديد في كشف معاني القرآن الكريم وبيان منهجيات علمية مستجدّة قادرة على مواصلة فتح أبواب العلوم القرآنية بما يناسب العصر ويحقق الهداية للناس كافة.

وفي تقديرنا أنه لو واصل العلماء الاجتهاد في ترتيب النزول بعد القرن الأول والثاني للهجرة، ولو واصلوا التفكير العقلي بمعاني التنزيل ومساقاته العلمية سنةً بعد

---

(1) انظر: منهجية البحث في التفسير الموضوعي، الدكتور زياد الدغامين، ص 104.

سنة في مكة ثم في المدينة لكان التفسير المتجدّد للقرآن الكريم هو الأقدر دائماً على مواكبة مستجدات كل عصر إسلامي قادم، ولكن اهتمام المفسّرين بأنماط متقاربة في التفسير واعتمادهم على النزعة الروائية والحديثية للتفسير ساعد على شيوع اتجاه واحد للتفسير وصفه بعضٌ بالاتجاه التجزيئي[1]، وهو ما وصفه عالم آخر بالاتجاه التحليلي[2]، وهناك تحفظات على هذه الأوصاف لو تُوُخِّيَتْ الدقة العلمية.

وقد شاع في القرن الأخير القول بالتفسير الموضوعي للقرآن، أو بالوحدة الموضوعية في تفسير السور القرآنية، فظن بعضٌ أنه اتجاه جديد في التفسير وهو في الحقيقة قديم، ولكنه جديد في الوصف والتسمية فقط، وفي وضع قواعد علمية له، وتحديد منهجية للبحث فيه، والجديد حقيقة هو الوحدة الموضوعية في تفسير السور القرآنية، ولكن أهم ما يلاحظ على الآخذين بالتفسير الموضوعي، أو الوحدة الموضوعية في تفسير القرآن كله أو في تفسير بعض السور القرآنية عدم اعتمادهم على التفسير التاريخي أو الوحدة التاريخية للسورة القرآنية، مما يُفقد مثل هذه الأبحاث كثيراً من عوامل القوة والمنهجية الضرورية لهذا التفسير بالذات.

إن الاهتمام بالتفسير الموضوعي أو بالوحدة الموضوعية دون الاهتمام بالوحدة التاريخية والتفسير التاريخي يُفقدهما كثيراً من الفوائد العلمية، وهو ما نفصّله في الفصل التالي.

---

(1) المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثاني، 14109هـ-1981م، ص 13.

(2) التفسير الموضوعي في كفتي الميزان، الدكتور عبدالجليل عبدالرحيم، الطبعة الأولى، 1412هـ-1992م، ص 39.